المقدمة

الدّين حَاجَة الإنسان الأُولى

١ ــ الدين فطرة الإنسان:

خلق الله تعالى الإنسان مفطوراً على الإيمان، مغروزاً في طباعه الاعتقادُ بإلٰه خالق باريء.

فلو تُرك هذا الإنسان وفطرته، لما اختار سوى الإيمان بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّيْنُ القَيِّمُ ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة فأبواه يهودانِه أو ينصرانِه أو يُمَجِّسَانِه»[2].

والمراد بالفطرة: الخلقة المعروفة الأولى المخالفة لخلق البهائم، قال بعض أهل الفقه والنظر: على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة.

---

(١) سورة الروم ٣٠.

(٢) رواه البخاري، ومسلم.

وقيل: المراد بالفطرة: ما أخذ عليهم في صلب آدم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾[1]، وإن الولادة تقع عليها حتى يقع التَعْبير بالأبوين، وقرره أبو العباس القرطبي، بأن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام، وصحته[2].

وقيل: المراد: أن الله تعالى قد فطرهم على الأفكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان، فأخذ من ذرية آدم عليه السلام الميثاق حين خلقهم، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾، فقالوا جميعاً: بلى، فأما أهل السعادة، فقالوا: بلى، على معرفة له طوعاً من قلوبهم، وأما أهل الشقاوة، فقالوا: بلى، كرهاً لا طوعاً[3].

وإن مما يؤكد فطرة الإيمان في الإنسان، أن الله تعالى لم يَدْعُ الإنسان إلى الإيمان، فإن الإيمان فطرة، وإنما دعاه إلى الإيمان بالله وحده، وهو الحق، كما قال سبحانه: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[4].

كما أننا لا نجد آية تأمر الإنسان بأكل الطعام، لأن العمل على حفظ الحياة عن طريق الأكل وغيره فطرة في الإنسان، وإنما نجد تخصيص الطعام أن يكون حلالاً طيباً، أو أن يكون اعتدالاً دون إسراف، مثل:

---

(١) الأعراف: ١٧٢.
(٢) انظر «طرح التثريب في شرح التقريب» لأبي زرعة العراقي ٧ / ٢٢٥.
(٣) المرجع السابق ٧ / ٢٢٧.
(٤) سورة الحديد / ٧.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[1].

٢ ـ الدين إجابة على الأسئلة الدائمة في حياة الإنسان

مَن أنا؟ لماذا خُلقت؟ ماذا يُراد بي؟ ماذا يُراد مني، إلى أين المصير؟ ما هذا الكون؟. من أوجده؟ من جعله صالحاً لانتفاع الإنسان والحيوان به؟ ما شأنه؟ ما حدوده؟ وما غايته ونهايته؟ وغير ذلك من الأسئلة التي يعجز عن الإجابة عليها كل عقل وفكر، وفلسفة وحضارة، إلاّ أن يرجع إلى الدين يسأله، ويأخذ منه الجواب الصحيح. لقد ضل عقل الهوى والتقليد ضلالاً بعيداً، حين دخل مداخل ما بعد الطبيعة، فقال على جهل أو هوى أو تقليد أعمى: إن هذا الكون قد وُجد هكذا، وتجنب الوقوف عنده، والتفكير فيه، ليستر ضلاله وعجزه، وهو يعلم، ويقرر للناس أن سطراً من كتاب لا يُكتب هكذا، دون كاتب، ومائدة طعام لا تهيأ هكذا دون عامل، فكيف يوجد هذا الكون، هذه العلوم المختلفة، هذا الإنسان العجيب هكذا صُدفة دون خالق قادر عليم حكيم؟! كما ضل هذا العقل حين ألّه نفسه، فأراد أن ينظم حياة الإنسان على الأرض، وهو لا يعلم حقيقة، ما هذا الإنسان، ولا يعلم مستقبل هذا الإنسان، ولا مستقبل حياة الناس على الأرض.

لذا تجده يُرقع كل يوم آراءه أو يغيرها، يضيق أو يوسع أحكامه عليه باسم التقدم والمصلحة، دون أن يعترف بالعجز عن إدراك حقيقة هذا الإنسان، وما يُصلح هذا الإنسان ويصلح له.

---

(١) سورة الأعراف: ٣١.

٣ ــ الديــن علم ومعرفــة حقــة:

من المعلوم أن طرق الوصول إلى المعارف ثلاثــة:

أ ــ الحواس من السمع والبصر، وهو أقل مراتب المعرفة، فإن الحواس ضيقة المجالات، محدودة القوى، ويعرض لها النقص والضعف والفتور والخطأ أكثر من سواها.

ب ــ العقل والتفكير، وهو أعلى من الطريق الأول، ولكنه كذلك ضيق المجال، محدود بالتصورات، لا يدرك إلا ما يتصور، محدود القوة لأنه كائن في هذا الإنسان المخلوق المحدود، وأنّى له إدراك الغيوب.

ج ــ الخبر الصادق، وهو أعلى مراتب المعرفة، وأشرفها، لأنه مستمد من الله الذي خلق فسوّى، لا تخفى عليه خافية مما خلق وأنشأ، ثم نقل إلى الإنسان ما شاء منه بواسطة رسول من خلقه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1].

وكلما قرب علم الخبر من صدق القائل والناقل، كان أجدر بالقبول، ﴿وَمَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ قِيلا﴾[2]، و﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾[3] اللهم لا أحد، ومن علم الخبر هذا «بعد حقائق الدين» المعارفُ النظرية، بل وكثير من المعارف العملية، فالكثير الكثير من حقائق العلوم العملية تُنقل إلى الناس على أساس أنها معلومات مأثورة مروية، لا داعي للتحقيق فيها

---

(١) النجم: ٣ و ٤.
(٢) النساء: ١٢٢.
(٣) النساء: ٨٧.

والتمحيص لها، فأعجب بعد: بمن لا يؤمن إلا بما يشاهد، ثم يدع الخبر الصادق والعقل جانباً.

٤ ـ الدين تنظيم لشؤون الفرد والمجتمع:

لا ريب أن خالق هذا الإنسان ومالكه هو الله سبحانه، وهو جلَّ جلاله العليم الخبير به وما يضره وما ينفعه، فهو وحده الجدير بأن يشرع لعباده ما يصلح نفوسَهم، وقلوبَهم، وأخلاقَهم، وما يصلح حياتهم في صِلاتهم بأنفسهم وأهليهم والمجتمع، في العقيدة والمعاملة والسلوك، على أساس العبودية لله تعالى، والأخوة المحبة للناس. وما أراني بحاجة إلى القول أن تخبط البشرية ـ بعيداً عن توجيه الدين ـ وتنازعها يقوم في الصعيد الفكري والعقيدي على تقدير صلاح الفرد والمجتمع، وفق آراء وأفكار ومصالح معينة، وكلٌّ، كما قال القديم:

وكل يدّعي وصلاً بليلى
وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

لذا نجد الإنسان في نفسه، وربطه بالمجتمع، والمجتمعات بالمجتمعات يزداد تعقداً وضموراً، وبُعداً عن التعاون على البر والتقوى كلما ابتعد عن مسار الدِّين، وترك الدين وراءه ظهرياً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥ ـ الدين تلبية لأشواق وأماني:

الحب، الرحمة، الشوق، التواضع، الصدق، الأمانة، الرجاء، من يحرك هذه العواطف في قلب الإنسان كما يفعل الدين؟

إن الدين هو وحده الذي يعلق القلب بحب الكمال، وحب الكامل البريء من النقائص والعيوب، بالغني الكبير المتعال، وهو الله سبحانه، وجميع ما يكون في سبيله وابتغاء مرضاته سبحانه حتى حب الزوجة والولد والمال، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والصدق مع الخلق، وحب الخير للناس كافة.

من يحول القلب نحو الرحمة، وإغاثة اللهفان، ومساعدة الضعيف، وعون المحروم، مثل الدين؟ إن الصورة مهما كانت معبرة في إظهار البؤس والفقر، لا تكاد تحرك قلب الإنسان نحو موضع المال لاستخراجه ومساعدة الفقير والبائس، لأن الصورة لا تثير فيه جانب الاندفاع إلى مساعدة الآخرين.

وقل مثل هذا في الصدق والأمانة، والعفة والحياء، إن المصلحة والمنفعة واللذة لا تُعلِّم خلقَ الصدق والعفة، لأن المصلحة زئبق لا يثبت على ميزان، وبرق خلب لا يستقر على حال، ودعوى يركبها لهواه كل إنسان.

والأماني في حياة الإنسان سعادة وراحة، حبور وسرور، طمع في العيش في نعيم لا يعكره كدر، في سرور لا يعتوره حزن، هذه الأماني ينظمها، ويحققها في الإنسان الدين، ولا شيء غير الدين، إنك لتسمع حتى في البلاد التي يراد لها أن لا تؤمن بالله، تسمع فيها تلك الأشواق والأماني، دار النعيم، مقهى الفردوس، جنة الأطفال... يربى فيها الناس أن يعتقدوا أنهم إذا فرغوا من الأعمال، أو أحيلوا إلى التقاعد سيحيون بعدُ في نعيم، وراحة وسعادة؟! وكثير منهم ينفقون على أنفسهم في كبرهم ما

جمعوه بشقاوة النفس، وعلى انحراف السلوك في شبابهم، فأين تحقق الرجاء؟

أما الدين فهو يُرَغِّب في الجنة، دار الراحة والسعادة الحقة، حيث يجد المؤمن ـ حقاً ـ ما تشتهيه نفسه، وتلذ عينه، على سرور لا يعتوره حزن، وصحة لا يعرض لها مرض، في حياة لا يقتنصها موت، وشباب لا يأتي عليه شيخوخة، على دوام لا يدركه زوال.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيْهَا أَنْهارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِيْنَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ [محمد؛ ١٥].

٦ ــ الديــن سعــادة: في الإخلاص لله تعالى مالك الملك، الذي يملك الإثابة والعطاء، ومنح المرء ما يحب ويتمنى، في حب الخير الذي يندفع إليه المؤمن من دون انتظار مكافأة بل شكر من الناس، لأنه قد فعل ذلك كله لله، وقد وقع أجره على الله.

وأنى أن يتحقق ذلك بغير الدين؟ من يدفع الإنسان إلى الإخلاص للناس، ولو تنكروا لفضله أو جحدوا معروفه؟ الذكر الحسن؟ ثناء الناس؟ كتب التاريخ؟ كل هذا في نظرهم لا يساوي شيئاً، إذ لا يفيده في الحصول على منصب أو مال أو حاجة مرغوب فيها، وقل مثل هذا في سواه، وواقع الحياة في المجتمعات المختلفة المتمدنة منها وما دونها تفيد هذا؟!

من دفع ذلك اليهودي الأميركاني إلى أن يبيع أسرار القنبلة الذرية إلى روسيا، وهو يعيش في أمريكا، ويعيش من العمل بهــا..؟

من دفع موظفين كباراً في دول عديدة إلى أخذ الرشاوي من شركات تبيع لبلادهم ما تحتاج إليه؟ ولا شك أن المرتشي لا يبالي تطبيق المواصفات الحقة في المشتري من تلك الشركات، فيخون بذلك مصلحة بلاده، إذ يذهب ببعض مالها هدراً في سبيل الشيطان، أو قل في سبيل مصلحته الخاصة هو، لو أخلص أولئك لله لامتنعوا عن الخيانة خوفاً من الله.

٧ ــ الديــن حمايــة وتربيــة:

الدين حماية من فساد القلب وحسده، وبُغضه وأنانيته، الدين حماية للتربية من فساد السلوك في السرقة، والاحتيال، والكذب، والغيبة، والنميمة، وإرادة الشر، والحرمان بالناس، الدين تربية للقلب على الصحة، في أن يحب للناس ما يحب لنفسه، وأن يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به.

ولا أراني بحاجة إلى عقد مقارنة بين حالة المؤمن القلبية والسلوكية، وحالة الملحد القلبية والسلوكية، الأول يربطه بالخُلُق دين، كما تربطه به صلاة وصيام، أما الملحد فلا يربطه بالخلق إلا مصلحة، أو خوف ورجاء مرتقب، لأنه لا دين له.

وواقع الحياة في الأفراد، والمجتمعات المعرضة عن الدين برهان وأي برهان.!

٨ ــ الدين سعادة الإنسان في الدنيا والآخــرة:

ذلك لأن المؤمن يعتقد أن جميع ما يصيبه في حياته هو خير له، قد

يكون خيراً في الظاهر والحقيقة، وقد يكون خيراً في الحقيقة فقط، لقد كان رسول الله إذا أصابته النعماء قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أصابه غير ذلك قال: «الحمد لله على كل حال».

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله قال: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كلَّه خير إنْ أصابته نعماء حمد الله تعالى عليها فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضراء صبر عيها فكان خيراً له فكل أمر المؤمنين خيـــر»[1].

إن المؤمن يعتقد أن الدنيا مزرعة للآخرة، وما من فلاح إلا ويتعب في زرعه رجاء الحصاد، فالمؤمن مهما نصب وبذل، وقاسى وناله من مكروه، يعلم يقيناً أنه أمر زائل، ثم هو يُخلف خيراً كثيراً عند الله، وما الدنيا عنده سوى أيام... وستمضي الأيام ويبقى حلوها، وأجرها، عن أنس رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل الناس فيغمس فيها غمسة ثم يقال له: يا فلان هل رأيت نعيماً قط هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا يا رب ما رأيت نعيماً قط وما مرَّ بي نعيم قط، ويؤتى بأبأس أهل الدنيا من أهل الجنة فيغمس فيها غمسة ثم يُقال له: يا عبد الله، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك بؤس قط؟ فيقول: لا يا رب، ما رأيت بؤساً قط، وما مرَّ بي بؤس قط»[2].

أمَّا في الآخرة، فالأمر واضح، إن السعادة في الآخرة وقف على من آمن بالله حقاً، قال رسول الله ﷺ «ألا لَنْ يدخل الجنة إلا كلُّ نفسٍ مؤمنة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاسق»[1] إن النار مقر ومنتهى مَن كفر بالله، والأمر يومذاك على ما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرور﴾. [آل عمران: ١٨٥].

إن أخطر أمراض البشرية اليوم مرض القلق والاضطراب، عدم الرضا بالموجود، والتعلق بالمجهول، بالأمل، حتى يأتي قاطع الأمل وهادم اللذات، وهو الموت بما فيه.

إن حوالي ٧٥ ٪ من الشعب السويدي من فوق الثلاثين من العمر، يحتاج إلى تعاطي المواد الطبية المهدئة للأعصاب، والمساعدة على النوم، ويدخل المستشفيات والمصحات العقلية السويدية ١١٠ آلاف شخص كل عام، ومنهم ٢٢ ألفاً يُؤخذون إلى مستشفيات الأمراض العقلية إجبارياً لحالاتهم الخطرة على الناس، ويموت ثمة ٢٠٠٠ شخص منتحرين، والذين يحاولون الانتحار، ويتم إنقاذهم يصلون إلى ٥٠ ألف شخص[2].

وإنه لمما لا شك فيه، أن راحة البال أساس راحة الأعصاب، ولا شك أن الرضا بما قسم الله تعالى هو الغنى الحاضر، وفيه هدوء الفكر، وراحة الأعصاب، وقرار الروح والعيش الهنيء قال رسول الله ﷺ: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[3].

---

(١) رواه البخاري، وأحمد.

(٢) من مقالة في «حضارة الإسلام» بعنوان: أنباء فيها مزدجر، لكاتب هذه الرسالة.

(٣) أبو داود.

٩ ـ الدين مـع الإنسان دائمـاً:

كان مع الإنسان الأول في السماء: ﴿وعلَّم آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها. . . وَقُلْنَا يا آدَمُ اسكنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الجَنَّة﴾. [البقرة ٣١ و ٣٥].

وكان معه حين أهبط إلى الأرض لعمار الأرض: ﴿قُلْنا اهبُطوا مِنْها جميعاً فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فمنْ تبع هُدايَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزنُون﴾ [البقرة: ٣٨]. وكان معه فيما أرسل الله تعالى إلى كل أمة نبياً أو رسولاً: ﴿وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، حتى النبي الأخير: ﴿مَا كَانَ محمدٌ أبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ولكِنْ رسولَ اللهِ وخَاتَمَ النبيِّين﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولن يزال هذا الدين مع الإنسان يعلمه، يعظه وينصحه، يرشده ويقوِّمه، إلى قرب قيام الساعة عند طلوع الشمس من مغربها، ويومذاك: ﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إيْمَانُها لَمْ تَكُنْ آمنتْ مِنْ قبْلُ أَوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً﴾. [الأنعام: ١٥٨].

فالإنسان هو الإنسان ترفعه تربيته، أو تضعه تربيته، لا يفعل فيه المظهر من اللبس والمركب والمسكن شيءاً.

حاجة الإنسان الفطرية والجسمية والروحية حاجة دائمة، وإنما يغذيها ـ حقاً ـ الدين، الدين بما يربي الروح على الإيمان بالله تعالى وطاعته، ويربي العقل بالعلم النافع، والبحث، وطلب المعرفة، ويربي الجسم بالتمتع بما أباح الله من أنواع الطعام والشراب واللباس، مما هو طيب نافع مباح دون ما هو خبيث وضار.

كم يخطىء أولئك الذين يظنون أن الإنسانَ العصري غير الإنسان القديم، وأن مطالب الاثنين الحقيقية قد اختلفت.

انظر إلى حب النفس، والأنانية، والاستئثار، وحب التسلط، وحب الجنس الآخر والولد والمال، هل تغيرت في إنسان العصر عن الإنسان القديم؟ أم قد تغيرت مظاهر ووسائل لا غير؟!

انظر إلى حاجة الإنسان إلى الهواء، والطعام، والشراب، والكساء، هل اختلفت بين إنسان اليوم وإنسان الأمس البعيد هذه الحاجة؟ لا وإنما تغيرت مظاهر ووسائل؟!

انظر إلى تقدير العقل للصدق، والأمانة، والعفة، وبر الوالدين، وحب الخير للآخرين، وحب النظام، وطاعة الحاكم، انظر هل اختلف تقدير العقل قديماً لها عن تقدير العقل اليوم لها؟ وهكذا وهكذا...

إن الإنسان هو الإنسان، ترفعه تربية دينية صحيحة، ويضعه فقدان تلك التربيـــة.

إن الناس يقرؤون لعقلاء حكماء، عاشوا منذ مئات السنين ولا يبالون بكتّاب نَوْكى يعيشون في عصرهم، لأن أولئك كانوا عقلاء حكماء ذوي آراء جيدة في الحياة، وهؤلاء سفهاء حمقى ذوو تربية هي الهوى، والغرض الرخيص.

٩ ــ وأخيـــــراً، إن حاجة الإنسان إلى الدين ضرورية فوق حاجته إلى الطعام والشراب وكل شيء، لأن الدين يُعرف الإنسان مواقع رضى الله تعالى ومساخطه، في جميع أعماله الاختيارية، وهي مبنية على الوحي الذي لا يخطيء، ولا يجهل بحال، قال ابن القيم[١]: «هي حاجة أشد من حاجة الناس إلى الطعام والشراب، لأن غاية ما يقدر على عدم التنفس

(١) مفتاح دار السعادة: ٢ / ٢. بتصـــرف.

والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد، وأعظم من حاجة الناس إلى الطب، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب»، يعني: ولا يستطيعون أن يعيشوا على حيـــر بغيـــر دين.

* . * . * . * . *